موسوعة
المعرفة المسيحية
الأسرار
٥

مَعمُودِيَّة الأطفال
في الكِتابِ المقدَّس وَالتَّاريخ

بقلم
الأبُ بيتر مَدرُوس

دار المشرق
بيروت

1,25

طبع هذا الكتيب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

موسوعة
المعرفة المسيحية

الأسرار

٥

مَعمُودِيَّة الأطفال
في الكِتابِ المقدَّس وَالتَّاريخ

بقلم
الأبْ بيتر مَدرُوس

طبعة ثالثة

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه
ميشال صبّاح
بطريرك أورشليم للّاتين
١٩٩٥/٨/٩

جميع الحقوق محفوظة، طبعة ثالثة ٢٠١٠
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠ لبنان
www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5321-1

التوزيع: المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢ (٠١)
Website: www.librairicorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
E-mail: libor@cyberia.net.lb

الفصل الأول

معموديّة الأطفال
في إطار سيرة المسيح وتعاليمه

من طبيعة المعمودية نفسها التي أسّسها السيد المسيح والتي تتميّز عن معمودية يوحنا وشتى أنواع الغسل عند اليهود، ينتج ان للمعمودية ضرورة شاملة تثبت من عدّة نقاط :

١. إعلان الرب يسوع لنيقوديمس :

«الحق الحق أقول لك : ما من أحد يمكنه ان يدخل ملكوت الله إلّا إذا وُلد من الماء والروح» (يوحنا ٣:٥).

يلمح يسوع الى المعمودية وضرورة قبولها الشامل. فالماء والروح من ميزات المعمودية الجديدة التي أسّسها يسوع نفسه كما تنبأ يوحنا المعمدان - الذي كان يعمّد معمودية التوبة والاستعداد للعماد الجديد (راجع يوحنا ١:٢٦ ومتّى ٣:١١).

«ما من أحد . . . إلّا إذا وُلد . . .»

لكلمات يسوع معنى عام شامل في النظام الجديد الذي أدخله المسيح الى العالم : ان الولادة «من عَلُ» من الماء والروح» شرط لا بد منه للدخول في ملكوت الله -

مما يشير الى ضرورة العماد. لذلك يصف بولس الرسول المعمودية بأنها «غسل الميلاد الثاني» (تيطس ٣:٥، رومية ٦:٤، أفسس ٥:٢٦).

يلحظ المرء شمولية إعلان يسوع «ما من أحد» (باليونانية: «ايان مي تس جينيثي») ولم يقل: «ان لم يولد بالغ» ولا «انسان ناضج» من الماء والروح. وفكرة الولادة ذاتها لا تفرض عمرًا محدّدًا بما أنها «بالروح» بحيث لا ترتبط بأي سنّ. أما نصيحة الكنيسة بتعميد الاطفال في أقرب وقت بعد ولادتهم الجسدية، فهدفها التقيّد بأقوال السيد المسيح التي تلي مباشرة إعلانه عن ضرورة الميلاد الجديد من عل من الماء والروح: «فمولود الجسد يكون جسدًا ومولود الروح يكون روحًا» (الآية ٦). لذا يكون الطفل غير المعمّد - وهو المولود من الجسد - كائنًا جسديًا فقط، في حين ان الطفل المعمّد مولود من الروح، فهو وليد الطبيعة التي جعلته ابنًا للغضب وقد أصبح وليد النعمة بالمعمودية.

أمام شمولية توصية المسيح وطابعها القاطع «ما من أحد لم يولد من الماء والروح يقدر ان يدخل ملكوت الله» وقف كثير من الناس حائرين وتساءلوا عن مصير الذين لا يقبلون المعمودية، من كبار أو صغار، لسبب أو لآخر. وانطلقت الكنيسة - في ماضيها وحاضرها - من هذه

الآيات الواضحة لكي تطلب من المؤمنين تعميد أطفالهم في أقرب فرصة ولتستودع أولئك الاطفال بين يدي الله ورحمته .

ان «الميلاد من جديد» أو «من عَلُ ، من الماء والروح» الذي طلبه السيد المسيح شرطًا لدخول الحياة الأبدية، يدلّ بشكل غير مباشر على ان الميلاد الجسدي غير كافٍ وانه لا يؤهّل لملكوت الله . فالميلاد الطبيعي يجعل أبناء الناس أبناء الطبيعة «والغضب» لا بذنب منهم بل كنتيجة لخطيئة العالم التي خطئها أبوانا الأولان «فصار جميع الناس خاطئين في آدم». لذا يلزم ان «يتبرّر أي يتقدّس جميع الناس في المسيح» أي بدم المسيح وفدائه، والمعمودية من أولى ثمار هذا الفداء. وكان صاحب المزامير قد أعلن بمرارة : «ها أنا بالآثام وُلدت وبالخطايا ولدتني أمي» (مزمور ٥١ (٥٠) :٧، راجع تكوين ٨:٢١ وأيوب ١٤:٤) . وهذا أحد الفروق بين معمودية يوحنا والعماد المسيحي : فمعمودية يوحنا للتوبة عن الخطايا الشخصية الفعلية المقترفة منذ سن التمييز والبلوغ، وهي استعداد للعماد الذي أسّسه المسيح والذي هو محوٌ للخطيئة الاصلية (الموجودة في الصغار أيضًا) وللخطايا الفعلية عند الكبار .

٢. مقابلة بولس الرسول بين العماد المسيحي والختان اليهودي:

هذه المقابلة التي وردت في أكثر من نص من رسائل رسول الأمم، تدعم ضرورة تعميد الاطفال وسائر القاصرين. قطعًا لا تدلّ المقابلة على المساواة في القيمة الروحية بين العماد والختان، بل على التشابه في نقاط كثيرة. ولكن شمولية المعمودية مؤكدة أولًا في إعلان السيد المسيح المعلّم للمعلّم نيقوديمس «ما من أحد...» بحيث يختلف العماد عن الختان في انه يشمل الذكور والاناث.

كتب بولس الرسول (قولسّي ٢:١١-١٢): «وفي (المسيح) خُتنتم ختانًا لم يكن فعل الأيدي بل بخلع الجسد البشري، وهو ختان المسيح، ذلك انكم دُفنتم معه بالمعمودية وبها أيضًا أُقمتم معه لأنكم آمنتم بقدرة الله الذي أقامه من بين الأموات».

كان أطفال اليهود الذكور خاضعين للختان (راجع لوقا ٢:٢١) وكذلك الوثنيون الدخلاء البالغون. ومن مقابلة بولس الرسول بين العماد والختان ينتج ان من الواجب على الوالدين وأولياء الأمور ان يقدّموا للأطفال - من ذكور واناث - نعمة الختان الجديد الروحي عن طريق مياه المعمودية بحيث ينضمّون الى شعب الله الجديد (غلاطية ٦:١١).

وهكذا «يطعّم» المولود الجديد - من ذكر وأنثى - كزيتونة برية الى الشجرة الحقيقية التي هي المسيح (راجع رومية ١١:١٧).

وكما لم يتردّد الوالدون اليهود في ختان أبنائهم وما رأوا ضرورة «لاستشارتهم» لاعتقادهم الراسخ ان الختان خير لهم مطلق، هكذا لا يجدر بالوالدين وأولياء الامور المسيحيين ان يتردّدوا في شأن تعميد أطفالهم بذريعة انه يجب مشاورة الاطفال أو تركهم أحرارًا الى ان يبلغوا سن الرشد أو النضوج، وذلك لاعتقاد المؤمنين المسيحيين ان المعمودية، اي غسل الميلاد الثاني، ضرورة ملحّة كي يدخل أطفالهم الحياة الأبدية كما كان مولدهم بالجسد الباب للدخول الى الحياة الدنيا. وفعلًا لا «يستشير» الوالدون ولا أولياء الأمور أبناءهم في الأمور الضرورية للحياة: فلا يسألونهم إذا كانوا يريدون ان يأتوا الى هذا العالم، ولا يستشيرونهم في شأن الرضاعة والطعام والشرب والثياب والتطعيم والذهاب الى المدرسة وما الى ذلك من أمور لا يدرك فيها الصغير خيره. ولو استشار المرء الاطفال لاختاروا الحلويات على الطعام المغذّي والتسكع في الشوارع على الدراسة ...

٣. شمولية الأمر الذي أصدره يسوع في شأن العماد :

قال السيد له المجد لرسله : «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس . . .» (متّى ٢٨:١٩) .

الأمر شامل والمعمودية يجب ان تضمّ «الكل» أي «جميع الأمم» - بحيث لا يجوز ان يُستبعد أحد من نعمة المعمودية في إطار الفداء الذي أنجزه المسيح مقدّسًا كنيسته وهي العروس التي «قدّسها يسوع ونقّاها بغسل الماء والكلمة» (أفسس ٥:٢٦) .

ان العنصرين المذكورين في نص أفسس ٥:٢٦ يشيران بشكل جليّ الى طبيعة المعمودية المسيحية في «مادتها وشكلها». فمادّتها هي الماء وشكلها هو الصيغة التي أملاها علينا الرب يسوع نفسه «باسم الآب والابن والروح القدس» (أو التي تبنّاها الرسل أحيانًا، أي المعمودية «باسم الرب يسوع») . ومن ناحية عملية كان ضروريًا التمييز بين المعمودية المسيحية التي أسّسها يسوع وبين معمودية يوحنا المعمدان التي قبلها يسوع (وان لم يكن اليها بحاجة) وبين معموديات يهودية للتثبّت من انتماء أحدهم الى اليهودية (مثل «معموديات» معاصرة للفلاشا القادمين من أثيوبيا للتثبّت من يهوديتهم أو لمحو آثار المسيحية) أو معمودية الداخلين الى جماعة الأسينيين في

قمران عند البحر الميت . لذا من البديهي ان الكلمات التي تصحب «الغسل» هي التي تحدّد طبيعة المعمودية ، فالماء واحد والصب أو التغطيس أو الرش عملية مشتركة، إلّا ان المغزى والهوية والمعنى تُحدَّد بالكلمات التي تُلفظ . ويبدو ان بعض جماعات نشأت منذ القرن السادس عشر لا تلفظ أي كلمات في أثناء التغطيس بحيث يكون ثمّة «غسل» ولكن من غير «كلمة» . وعلى هذا الاساس تشك الكنيسة في صحة تلك المعموديات أو في مسيحيتها .

٤. ممارسة الرسل والتلاميذ الأولين، أي تعميدهم الأطفال وسائر القاصرين :

يلي في الفصل الثاني تحليل لنصوص العهد الجديد وتفصيل لهذه الممارسة الرسولية .

الفصل الثاني

تعميد الرسلِ والتلاميذِ الأولين
الأطفالَ والقاصرين

أحبّ يسوع الاطفال وحضنهم وباركهم وطلب ان يأتوا اليه وان لا يصدّهم أحد «لأن لمثل هؤلاء (أي الاطفال) ملكوت الله» (راجع مرقس ١٠:١٤ و١٦، لوقا ١٨:١٦). وبعد ارتفاع يسوع الى السماء ما من سبيل للأطفال كي «يذهبوا اليه» سوى بالمعمودية - أو بالموت! ولكن حتى بالموت لا يذهب الاطفال المسيحيّون الى المسيح ولا يدخلون ملكوت الله «إلّا إذا وُلدوا من عَلُ، من الماء والروح» (يوحنّا ٣:٥ وتابع).

تبني الكنيسة الشرقية ممارستها في مناولة الصغار حتى الاطفال الرضع مع المعمودية والميرون، على وصية المسيح التي تدع الكبار والصغار يذهبون اليه.

١. الوصية السيدية:

«اذهبوا وتلمذوا جميع الامم ...» (متّى ٢٨:١٩) «اكرزوا بالانجيل للخليقة كلها. من آمن واعتمد يخلص» (مرقس ١٦:١٥ وتابع):

هل تعني الوصية إقصاء الاطفال وسائر القاصرين من

العماد بذريعة انهم أولًا يعتمدون وبعد ذلك يتلقّون التعليم ويقبلون الايمان؟ أهكذا فهم الرسل الامر السيدي؟

لا، بل عمّد الرسل وتلاميذهم وخلفاؤهم الكبار والصغار من أطفال وقاصرين آخرين.

٢. ممارسة الرسل:

فعلًا عمّد الرسل الاطفال وسائر القاصرين في إطار معموديات العائلات ومعموديات الجماهير. وما أنكروا كلمات السيد المسيح الذي طلب ان يتلقى الناس التعليم ويقبلوا الايمان وبعده المعمودية. وفي الواقع، لم يكن هنالك مسيحيّون في مرحلة البشارة الأولى. كان هناك فقط يهود من جهة ووثنيون من جهة أخرى. ولكي يصبح يهود أو وثنيون مسيحيين كان عليهم أولًا ان يسمعوا عن يسوع ويقبلوا تعليمه، ويؤمنوا به، لينالوا بعد ذلك المعموديّة.

ولكن في المرحلة الثانية، أي بعد ان اعتمد انسان بالغ - سواء أيهوديًّا كان أم وثنيًا في الاصل - ما كان يعتمد وحده، بل كانت تعمّد معه أسرته كلها أو عشيرته بأسرها. وفي نص وصية السيد المسيح في متّى ومرقس ليس مطلوبًا ان تكون هناك فترة زمنية بين الايمان والتعليم من جهة والمعمودية من جهة أخرى.

نقرأ في متّى: «اذهبوا وتلمذوا وعمّدوا» (واو العطف).

وفي مرقس: «مَن آمن واعتمد يخلص» وكأن التعلّم والايمان والاعتماد عملية واحدة، وهي فعلًا كذلك من ناحية معنوية وروحانية بحيث ان المعمودية تأتي كثمرة منطقية للتعلم والايمان. ويقدّم العهد الجديد في أعمال الرسل وفي الرسالة الأولى الى أهل قورنتس الدليل على ان معمودية بالغ يهودي أو وثني ما كانت عملية منعزلة منفردة، بل كانت تمتدّ توًّا الى أفراد أسرته وعشيرته ومعارفه بعدوى الايمان والرغبة الصادقة في ان تشملهم أجمعين النعمة التي نالها رب أسرتهم أو صديقهم.

٣. التفاصيل من العهد الجديد عن تعميد الرسل أطفالاً وقاصرين مع الكبار:

أولًا: معموديات الاطفال ضمن معموديات العائلات

أ – تعميد بطرس الرسول الضابط قرنيليوس وبيته (أعمال ١٠):

في بعض المناسبات يقبل جميع الحاضرين، بلا أيّ تمييز ولا تحديد، المعمودية على يد أحد الرسل، بحيث يصبح محالًا إنكار تعميد الرسل الأطفال أو على الاقل تعميد الرسول الفلاني (بطرس مثلًا) الأطفال:

أعمال الرسل ١٠: ٤٤- ٤٧: «وكان بطرس ما يزال يروي هذه الامور إذ نزل روح القدس على جميع الذين سمعوا كلمة الله». فدُهش المؤمنون من أهل الختان (أي اليهود) الذين رافقوا بطرس، ذلك بأن موهبة روح القدس قد أُفيضتْ على الوثنيين أيضًا. فقد سمعوهم يتكلّمون لغات غير لغتهم ويعظّمون الله. فقال بطرس (في بيت الضابط قرنيليوس): أيستطيع أحد ان يمنع هؤلاء من ماء المعمودية وقد نالوا روح القدس مثلنا؟ «ثم أمر ان يُعمَّدوا باسم يسوع المسيح، فسألوه ان يقيم عندهم بضعة أيام».

هكذا عمّد بطرس الرسول قرنيليوس وجميع أهل بيته وجميع الحاضرين. وفي مثل هذه الظروف قد يكون صعبًا تعميد كل أولئك القوم بالتغطيس.

نعود الى بدء الفصل العاشر من أعمال الرسل لنكتشف نقاطًا أخرى تساعد على إدراك معمودية الاطفال من ناحية والتعمق في روحانيات المعمودية والايمان من ناحية أخرى:

أعمال ١٠: ١ وتابع: كان قرنيليوس قائد مئة وكان تقيًا فاضلًا «يخاف الله هو وجميع أهل بيته». قد تشير العبارة «يخاف الله» إمّا الى انه كان إنسانًا ذا تقوى وأخلاق حميدة وايمان، وإمّا، زيادة على ذلك، كان يؤمن

بإله واحد ويقبل أمورًا كثيرة من الدين اليهودي ولكنه يرفض الختان والسبت وغيرها من المراسيم الطقسية. وها ان بطرس لا يطلب إليه ولا إلى أهل بيته الختان، بل المعمودية، وذلك بعد حلول الروح القدس.

قد تعني العبارة «جميع أهل بيته» ليس فقط أبوه وأقاربه (من زوجة وأولاد وأخوة وأخوات أو حتى والدين، وان كان من المستبعد قدوم والدين مسنين مع ابنهم الضابط من ايطاليا)، بل قد تعني أيضًا العائلة والخدم (راجع أيضًا أعمال ١١:١٤، ثم ١٦:١٥ و٣١، ثم ١٨:٨) وأيضًا (الرسالة الأولى الى القورنثيين ١: ١٦). وقد تدل أيضًا على الاصدقاء والزملاء أي أصحاب المهنة الواحدة (راجع ١٠:٧ و٢٤). كان «البيت» كلّه يهتدي ويُعمّد (١٦:١٥ و٣١ و٣٤، ثم ١٨:١٨).

في انتظار بطرس وقرنيليوس وجميع أُسرته، دعا أيضًا «أقاربه وأخصّ أصدقائه» (الآية ٢٤). ومن السهل عليهم استصحاب أطفالهم أو قسم منهم.

ووجد بطرس «جماعة من الناس كثيرة» (الآية ٢٧). ومن غير المعقول ان تكون كل تلك الجماعة مكوّنة من رجال بالغين ونساء بالغات بلغوا الثلاثين وما فوق.

ب – معمودية ليديا وجميع أهل بيتها (أعمال ١٠):

– أعمال الرسل ١٦:١٤– ١٥: «وكانت تستمع الينا (أي الى بولس ومرافقيه) امرأة تعبد الله اسمها ليديا وهي بائعة أرجوان من مدينة تياطيرة (في آسية الصغرى). ففتح الرب قلبها لتصغي الى ما يقول بولس. فلمّا اعتمدت هي وأهل بيتها دعتنا . . .».

ليديا هي التي تصغي وهي التي تتعلّم وهي التي تتتلمذ وهي التي تؤمن. أمّا العماد فتناله لا هي فقط، بل وجميع أهل بيتها أي أقاربها. ومن الغريب ان يكونوا جميعهم كبارًا بالغين أو من غير المنطقي ان يفترض المرء عدم وجود أطفال أو قاصرين بينهم.

ج – معمودية السجّان «وجميع ذويه» (أعمال ١٦):

– أعمال الرسل ١٦:٣٠– ٣٤: «ثم أخرجهما (السجّان بولس وسيلا) وقال: يا سيّدي، ماذا يجب عليّ ان أعمل لأنال الخلاص؟» – قالا: «آمن بالرب يسوع تنل الخلاص أنت وأهل بيتك»، ثم كلّماه وجميع أهل بيته بكلمة الرب. فسار بهما في تلك الساعة من الليل فغسل جراحهما واعتمد من وقته، واعتمد ذووه جميعًا. ثم صعد بهما الى بيته فوضع لهما المائدة وابتهج هو وأهل بيته لأنه آمن بالله.

إيمان السجّان كان كافيًا لخلاصه وجميع أهل بيته.
أمّا عبارة «ذووه أجمعون» الذين اعتمدوا فهي تشير الى كل أقاربه وعشيرته كقولك بالعامية «العيلة بالليلة». وحسب النص اليوناني الأصلي يمكن ان تنقل نهاية الآية ٣٣ كما يلي: «فاعتمد هو واعتمد جميع أقاربه (حرفيًا: «كل مَن له» أي مَن يخصّه من أقرباء وأنسباء) في الحال». ويلحظ القارئ أيضًا ان سبب ابتهاج «جميع أهل بيته» ايمانه هو ولم يقل «ايمانهم هم» لان ايمانه وايمانهم واحد في ظل أسرة واحدة متماسكة مترابطة في المحبة والوفاق.

د – معمودية رئيس الكنيس أو المجمع قريسبوس وجميع أهل بيته (أعمال ١٨):

– أعمال الرسل ١٨: ٨: «فآمن بالرب قريسبوس وأهل بيته جميعًا. وكان كثير من القورنثيين يسمعون كلام بولس فيؤمنون ويعتمدون».

الأقرب الى الصواب ان «أهل بيت» قريسبوس عبارة شاملة لا تقبل التحديد بحيث لا يمكن ان يفرض المرء أنهم كانوا جميعًا أبناء ثلاثين سنة وما فوق. ومن جهة أخرى لا يمكن الجزم في هذه الحالة حول السن، إذ يقرأ المرء ان أهل البيت «آمنوا»، امّا إيمانًا شخصيًا يفرض سن

التمييز أو الرشد وإمّا إيمانًا «عائليًا» أي إيمانًا شخصيًا عند الكبار مع شيء من التعميم على الصغار. صحيح من جهة ثالثة ان النص هنا يتكلّم أيضًا على «كثيرين من سكّان قورنتس الذين آمنوا واعتمدوا» من غير الاشارة الى ذويهم. ولكن لا مجال الى الجزم أو القول الفصل في هذا الموضوع بمعنى ان «الكثيرين» المذكورين اعتمدوا فقط كأفراد.

يكفي الاستنتاج ان الرسل وتلاميذهم قبلوا مبدأ «معموديات العائلات» وأيضًا «معموديات العشائر والاقارب بشكل عام شامل»، بحيث كان عندهم عماد الاطفال وسائر القاصرين أمرًا بديهيًا مفروغًا منه.

هـ – معمودية آل اسطفاناس القورنثي:

– الأولى الى القورنثيين ١:١٤-١٦: «انني، والحمد لله (!)، لم أعمّد أحدًا منكم سوى قريسبوس وغايوس ... بلى، قد عمّدت أيضًا أسرة اسطفاناس. وما عدا أولئك، لا أذكر انني عمّدت أحدًا».

خواطر في معموديات «العائلات»:

– العائلات الخمس التي يذكر كتاب أعمال الرسل والرسالة الأولى الى القورنثيين انها اعتمدت بكامل أفرادها، اعتمدت على يد اثنين فقط من أربعة عشر رسولاً

(هم الاحد عشر بعد ذهاب يهوذا الى موضعه ومتيا وبولس وبرنابا الذي وصف بالرسول) وعدد كبير من التلاميذ وسبعة شمامسة (أعمال ٦ ثم ٨:٢٦ وتابع). واذا كان «العهد الجديد» لا يورد معموديات أخرى على يد الرسل والتلاميذ الآخرين فلا سبيل الى انكارها خصوصًا ان الرسل كانوا يتلمذون جميع الامم ويعمّدون. كما ان لا سبيل الى إنكار معموديات أطفال على أيدي الرسل والتلاميذ الآخرين، بما أنهم قبلوا المبدأ انطلاقًا من محبة المسيح الاطفالَ ومن شمولية الخطيئة الاصلية التي تمس الاطفال أيضًا، ومن شمولية أمر يسوع بتعميد كل الشعوب وطلبه ان يولد كل انسان من علُ، «من الماء والروح».

– يمكن ان يأخذ المرء العبارات «أهل بيته» أي «أُسرته» إمّا بالمعنى الضيّق أو بالمعنى الواسع.

إذا أخذ المرء «أهل بيت فلان أو فلانة» بمعنى «الأُسرة الحديثة المعاصرة الضيّقة» أي «أب وأم وأولاد»، فمن المحتمل ان تكون هذه الرؤية مخالفة لواقع العالم القديم حيث كان رباط الأسرة – ولا سيما عند الشرقيين الساميين – واسعًا قويًا متينًا بحيث كانت ثلاثة أجيال تعيش معًا وكان الترابط الأسري شديدًا بحيث كان ابن العم والخال يُحسب أخًا ...

ولكن إذا أصرّ المرء على إدراك العبارة «أهل بيته» بمعنى زوجته وأولاده فقط، فلا مجال للافتراض ان «الاولاد» كانوا من سن ثلاثين وما فوق ولا انهم كانوا جميعًا قد بلغوا سن التمييز (وكان العالم القديم كثير النسل بشكل عام، كما كانت وفيات الاطفال أكثر عددًا ونسبة منها في أيامنا). لذا، عندما ينطلق المرء - جدلًا - من المفهوم الضيق للأُسرة قد يستنتج ان «الاولاد» كانوا دون السادسة عشرة أو الثامنة عشرة إذا فرض انهم كانوا عادة يتزوجون في معدّل تلك السن ويكوّنون «عائلات» أخرى.

أمّا إذا أخذ المرء عبارة «أهل بيته» بالمعنى الواسع أي تقريبًا بمعنى «جميع ذويه أو أقاربه» أي الاقرباء والانسباء والعشيرة كلها (وقد وردت الاشارة الصريحة الى معمودية «عشائرية» لـ «جميع ذوي» السجان) فلا يبقى هامش لعدم وجود الاطفال وسائر القاصرين بين المعمّدين والمعمّدات بين كل هؤلاء الافراد الكثيرين.

- وإذا استغرب قوم من بديهية «معموديات العائلات والاقارب» وقالوا بضرورة «الخيار الشخصي»، وجب ايضاح العقلية القديمة ولا سيما الشرقية حول اقتناع الوالدين بما فيه خير أولادهم وعدم ترددهم في اعطائهم الخيرات الضرورية وبالأخصّ «أمور دين قويم» وعلى رأسها

المعمودية. وتجد معموديات العائلات أساسًا لها كبيرًا في وحدة الأُسرة. يكتب جان جاك فون المين:

«إذا رفض قوم ان يروا في هذه النصوص (ولعلّها المشار اليها آنفًا من أعمال الرسل والرسالة الأولى الى القورنثيين) شرعية تعميد الاطفال فانهم مضطرون الى ان يرفضوا تعليم الكتاب المقدّس حول وحدة الأُسرة. فبناءً على تلك الوحدة الأُسرية نفسها كان ختان صغار اليهود في العهد القديم مشروعاً. والحال ان القديس بولس يجعل العماد في العهد الجديد موازيًا للختان ومقابلًا له، راجع «قولسّي ٢: ١١-١٢» («معجم الكتاب المقدّس»، روما ١٩٦٩، ص ٤٧).

وعليه يكون عماد الاطفال والقاصرين على أيدي الرسل والتلاميذ الاولين قد ورد في كتب «العهد الجديد» كنتيجة منطقية في اطار معموديات العائلات (على الاقل خمس).

ثانيًا: معموديات الاطفال والقاصرين في إطار المعموديات الجماهيرية

يورد سفر أعمال الرسل أن حشودًا غفيرة من الناس، من وثنيين ويهود، كانوا يعتمدون بالمئات والآلاف على أيدي بعض الرسل:

- أعمال ٢:٣٧- ٤١: «فلما سمعَ (بعض اليهود) ذلك الكلام تفطرت قلوبهم فقالوا لبطرس ولسائر الرسل: «ماذا نعمل أيها الأخوة؟» فقال لهم بطرس: «توبوا وليعتمد كل منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم فتنالوا موهبة روح القدس. فالوعد لكم أنتم ولأولادكم (قد تكون هنا إشارة الى تعميد الاطفال) وجميع الاباعد على قدر ما يدعو منهم الرب إلهُنا». وكان يستشهد بكثير من هذا الكلام ويناشدهم فيقول: «تخلّصوا من هذا الجيل الفاسد». فالذين قبلوا كلامه اعتمدوا، وانضمّ في ذلك اليوم نحو **ثلاثة آلاف** نفس».

من المحال ان تكون الثلاثة آلاف نفس مؤلّفة فقط من بالغين من سن الثلاثين وما فوق وأن لا يكون في صفوفها أطفال وقاصرون.

- أعمال ٤: ٤: «وآمن كثير من الذين سمعوا كلام الله، فبلغ عدد الرجال نحو خمسة آلاف».

في الخمسة آلاف رجل يمكن أن يفرض المرء وجود أرباب أسر كثيرة انضمت بكامل أفرادها كما كان الحال مع أرباب العائلات قورنيليوس والسجان وقريسبوس واسطفاناس.

- أعمال ٥: ٤١: «بل كانت جماعات الرجال والنساء تزداد عددًا فتنضمّ الى الرب بالايمان».

من الطبيعي والمنطقي أن جماعات الرجال والنساء كوّنت عائلات انضمّت من كبيرها الى صغيرها بالمعمودية الى المسيح.

- أعمال ٦:١-٧: «في تلك الأيام كثر عدد التلاميذ ... وكانت كلمة الرب تنمو، وعدد التلاميذ يزداد كثيرًا في أورشليم. وأخذ جمع كثير من الكهنة يستجيبون للايمان».

في ازدياد عدد التلاميذ ولا سيما في أورشليم دخل أفراد منهم أرباب أُسر وربّات عائلات خصوصًا عائلات الكهنة اليهود الذين كانوا يعتنقون المسيحية. وكان في أورشليم العديد من الكهنة اليهود. وكانوا عادة متزوّجين.

- أعمال ١١:٢١-٢٤: «وكانت يد الرب معهم فآمن منهم عدد كثير واهتدوا الى الرب. فبلغ خبرهم مسامع الكنيسة التي في أورشليم، فأوفدوا برنابا الى انطاكيا، فلما وصل ورأى نعمة الله، فرح وحثّهم جميعًا على التمسّك بالرب من صميم القلب، لأنه كان رجلاً صالحًا، ممتلئًا من روح القدس والايمان. فانضمّ الى الرب خلق كثير».

بين هذا الخلق الكثير أرباب عائلات وبيوتهم بكامل أفرادها الذين قبلوا المسيح بالمعمودية. (راجع أيضًا ١١:٢٦).

- أعمال ١٨:٨ب: «وكان كثير من القورنثيين يسمعون كلام بولس فيؤمنون ويعتمدون».

يبدو من خلال هذه النصوص ان المجال مفتوح واسعًا أمام معموديات الأطفال والقاصرين في إطار معموديات الجماهير والعائلات.

الفصل الثالث

معمودية القاصرين والأطفال عبر الأجيال

لم تبدأ معموديات الاطفال في القرن الثالث أو الرابع، بل برزت بشكل أقوى وخفّ عدد معموديات الكبار بعد مرور ثلاثة أو أربعة قرون على التبشير بالمسيح والانجيل. فنشأت أجيال وعائلات مسيحية رأت من البديهي تعميد أطفالها سائرة حسب توصيات السيد المسيح وممارسات الرسل والتلاميذ الأوّلين.

وقد شهد أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤) في الرسالة الى الرومانيين (٩/٥) أن الكنيسة تسلّمت من الرسل عادة تعميد الاطفال. وفي هذا المعنى كتب القديس ايريناوس (١٤٠-٢٠٢) في كتابه **في محاربة الهرطقات** وترتليانوس (١٦٠-٢٤٠) في كتابه عن المعمودية.

أما كتاب **التقليد الرسولي** المنسوب الى هيبوليتوس الروماني (القرن الثالث) فانه يشهد أيضًا لمعمودية الاطفال في ٢١/ ٤: «عند صياح الديك يقترب طالب العماد من المياه التي يجب أن تكون مياه جارية ونقية ... ويعمّد الاطفال أولًا. وإذا استطاع هؤلاء أن يجيبوا عن أنفسهم فليكن، وإلّا فليجب ذووهم أم أحد من أفراد أسرتهم

عنهم ... وفي الساعة المحدّدة للعماد يبارك الأسقف الزيت ويضعه في وعاء ... ثم يأخذ زيتًا آخر ويتلو عليه صلاة طرد الشرير ...».

يكتب القديس قبريانس أسقف قرطاجه أنه يجب تعميد الأطفال في اليوم الثامن بعد ولادتهم (راجع رسالته رقم ٤٦) وان في هذا التدبير محاكاة لتوقيت الختان في شريعة موسى (راجع لوقا ٢:٢١).

لم يتغيّر شيء من هذه الممارسات المقدسة أي تعميد الاطفال والقاصرين مع الكبار في القرن الرابع ويشهد لذلك القديس يوحنا فم الذهب (العظة ١١/٧١-٨٢) والقديس امبروسيوس في كتابه عن ابراهيم (٢/١-٨). وإذا كان هنالك نقاش فما دار حول تعميد الاطفال بل حول السن التي كان يجب تعميدهم فيها الى حدّ ان قوماً كانوا يوصون بتعميد الأطفال مباشرة بعد ميلادهم.

كتب ترتليانوس: «من الأفضل تعميد الأطفال عندما يستطيعون أن يفهموا ما تفعله (الكنيسة) لهم. فلماذا نعرّض الوالدين والأشابين من غير ضرورة الى الاخطار؟ إذ أنهم يمكن أن يموتوا من غير أن يتموا التزاماتهم» (أي نحو أطفالهم المعمدين).

أما القديس غريغوريوس في كتابه عن المعمودية ١٨

(العظة ٢٨/٤٠) فانه يوصي بتعميد الاطفال في سن الثالثة.

يكتب القدّيس اغسطينوس: (٣٥٤-٤٣٠) «ان الكنيسة عمّدت الاطفال دومًا، ولقد تسلّمت هذا التواتر الايماني من أجدادنا وستحافظ عليه الى نهاية الدهر. ان معمودية الاطفال ممارسة تنسجم مع إيمان الكنيسة الذي هو كثير الرسوخ والقدم» أي القديم القويم.

كشفت الحفريات عن وجود أجران عماد كبيرة للكبار وصغيرة للصغار.

لم تولد النظرية القائلة بعدم شرعية معمودية الصغار أو عدم فائدتها إلّا في القرون الوسطى مع حركتي الألبيجيين والوَلْدَويّين اللتين نشأتا في فرنسا. وفي القرن السادس عشر سنة ١٥٢١، أخذ ذلك الموقف الرافض لمعمودية الاطفال كل من نيقولاوس شتورش وثوماس مونتسر في المانيا وبعدهما هوفمان ويوحنا بوكلسون من ليدن ومنّو سيمونز في هولندا وقَبِل أفكار سيمونز الانجليزي جون سميث.

الفصل الرابع

معموديات الأطفال والقاصرين: بين الأخذ والردّ
(مسائل تفسيرية وراعوية)

السؤال الأوّل: لماذا تعمّد الكنيسة الاطفال مع أن تعليمهم وايمانهم يأتيان بعد عمادهم وقد لا يأتيان أبدًا؟

الردّ:

فتر إيمان بعض الوالدين عبر العصور ولذلك احتاطت الكنيسة لهذا الواقع الخطير وطلبت أن يكون هناك عرّاب أو عرّابان أي اشبين أو اشبينان لكل طفل يُعمّد ويُثبّت، وذلك لكي يساعدا الوالدين أو يحلّا محلّهما في تربية الطفل المسيحيّة. ومع الأسف أيضًا، وبسبب فتور الايمان والابتعاد عن الكنيسة وتغلغل الروح المادية صارت وظيفة الاشابين مقصورة على أشياء مادية منها احضار الهدايا الى الطفل الذي يقفون على معموديته أو تثبيته.

تأمل الكنيسة، مع الضعف البشري الموجود في الوالدين والاولاد، أن تنمو بذور النعمة الملقاة في نفس الطفل المعمّد وأن تساعد الرعية والمدرسة والجماعة الكنسية على ازدياد الايمان في قلبه.

أما حرمان الطفل من المعمودية بسبب الخوف من

إهمال أهله أو استهتارهم فقد يكون حصرمًا يأكله الوالدون وتضرس به أسنان الاولاد.

السؤال الثاني: أيجوز للكهنة أن يرفضوا تعميد أطفال أناس لامبالين أو مستهترين بالايمان؟

الرد:

في الراعويات الحديثة تطلب الكنيسة الكاثوليكية حضور الوالدين لدى كاهن الرعية قبل تعميدهم أيًا من أطفالهم، فتجرى اللقاءات المستمرّة مع الطفل ومع سائر معلّمي التعليم المسيحي. ولا تنصح الكنيسة برفض معمودية طفل بريء قد تنمو فيه النعمة وإن كان سليل أسرة لا تمارس واجباتها الروحية. فحرمان الطفل من المعمودية قد يكون حرمانًا له من أن يذهب الى المسيح.

ولكن يحقّ للكنيسة ولممثّليها الكهنة أن يقلقوا على تربية الأطفال المسيحيّة الذين يطلب اليهم تعميدهم. وربما يكون طلب الوالدين نفسه إشارة الى إيمان دفين وإن كان ضعيفًا أو سطحيًا فيأتي طلب المعمودية كمناسبة ذهبية لتعميق الايمان وتوطيد أواصر الثقة والصداقة مع تلك الأسر البعيدة عن الكنيسة.

وعلى الصعيد الرسمي احتاطت الكنيسة لإهمال بعض الوالدين في تربية أولادهم تربية مسيحية ووضعت

الأشابين كعرّابين لتلك التربية أو ضامنين لها أو معاونين فيها.

وفي بعض الحالات يفضّل تأجيل معموديّة الأطفال بدل رفضها بشكل قاطع نهائي.

السؤال الثالث: ألا يكتب بطرس الرسول في رسالته الأولى ٣:٢١ أن المعمودية هي للكبار بما أنها «معاهدة الله بضمير صالح»؟

الرد:

يوضح بطرس الرسول في مقابلته بين المعمودية وفلك نوح الذي نجا فيه بالماء عدد قليل أنه «رمز للمعمودية التي تنجّيكم الآن أنتم أيضًا، إذ ليس المراد بها إزالة أقذار الجسد بل معاهدة الله بضمير صالح بفضل قيامة يسوع المسيح»، ويوضح لمعمدين بالغين ضرورة محافظتهم على «ضمير صالح» (الآية ١٦ و١٧). فالكلام هنا ليس موجّهًا الى الاطفال. وليس ضروريًا أن يتكلّم كل نص من الكتاب المقدّس على كل شيء ولا على جميع فئات الناس. لذا لكي تكون للانسان الصورة الكاملة الشاملة لمضمون الكتاب المقدس، عليه ان يقرأ جميع نصوصه.

السؤال الرابع: هل يجب أن يتمّ العماد فقط بالتغطيس؟

الرد :

قبل الشروع في الجواب المباشر عن هذا السؤال الذي يعني الكبار من المعمّدين والصغار، تجب الاشارة الى قضايا الحشمة واللياقة. ففي حين كان المسيحيون الأوّلون يخلعون ثيابهم للمعمودية (التقليد الرسولي ٢١:٤) فقد تبيّن أن ضرورة الحشمة والأدب تفرض تفضيل الصبّ على التغطيس الكامل، وسرعان ما استعانت الكنيسة بالشماسات للمساعدة في معموديات الفتيات وسائر النساء.

يستند القول بضرورة التغطيس إلى أن الفعل اليوناني «ببتسين» يعني «غطّس»، وإلى ان بولس الرسول كتب أن المعمودية تصوّر الاشتراك في دفن المسيح وفي قيامته، وهذا الرمز يتمّ بشكل كامل في التعميد بالتغطيس (راجع رومية ٦:٣-٤).

وينطلق قوم من معمودية يوحنا المعمدان ليسوع ليؤكّدوا أنها تمّت بالتغطيس (راجع مرقس ١:٩-١٠، يوحنا ٣:٢٣).

إنّ رمز موت يسوع أو دفنه وقيامته حاضر بلا شك في المعمودية بالتغطيس أكثر منه في معمودية الصب أو الرش. غير أن السيد المسيح لم يحدّد لرسله وتلاميذه طريقة المعمودية المسيحية. ومن جهة أخرى أتت الظروف

الراعوية والاخلاقية والعملية لكي تفرض معموديات النساء بالصب أو الرشّ وذلك للسرعة والسهولة ولأغراض الحشمة والأدب واللياقة.

فعلًا كان من المستبعد أو من المحال أن يعتمد الرسل جماهير غفيرة بالتغطيس خصوصًا في مدينة أورشليم (راجع أعمال ٢:٤١ وسائر المعموديات الجماهيرية في الفصول ٤ و٥ و٦ و٩ و١١ و١٦ و١٨ من أعمال الرسل)، وبقرب علية صهيون حيث حلّ روح القدس على العذراء والنساء التقيات والرسل والتلاميذ، إذ لم توجد بقرب المكان مياه نهر ولا سيل ولا بحر كما لم تكن متوفّرة مياه غزيرة للآلاف من المعتمدين والمعتمدات (ناهيك عن الصعوبة العملية في حمل العدد الوفير من المعتمدين والمعتمدات الكبار).

- في أعمال ١٦:٣٣ يأخذ السجان بولس وسيلا في الليل ويعتمد هو وذووه أجمعون بقرب بيته. ونعلم أن بيوت الطبقة الفقيرة والمتوسطة كانت تخلو من البرك أو المسابح كما كانت تخلو كل البيوت القديمة من المياه الجارية.

نعلم من كتاب الديداكيه أو «تعليم الرسل الاثني عشر» الذي كُتِب بين عام مائة ومائة وخمسين ميلادية أي في القرن الثاني، أن الكنيسة كانت تمارس المعمودية

بالصبّ (٧/١-٣) : «أسكب على الرأس قليلًا من الماء ثلاث مرات باسم الآب والابن والروح القدس» .

أما فعل «ببتسين» فلا يعني فقط غطّس أو عمّد، بل يعني أيضًا اغتسل أو قام بالوضوء، راجع النص اليوناني الأصلي لانجيل لوقا ١١: ٣٨.

بعد المجمع المسكوني الڤاتيكاني الثاني أجازت الكنيسة الكاثوليكية الغربية المعمودية بالتغطيس أيضًا، مما يدل على انها ما عارضته قط من ناحية المبدأ (وكذلك مناولة الشعب تحت الشكلين أي من القربان والكأس) .

السؤال الخامس : أهنالك معمودية «بالروح القدس» من غير ماء؟

الرد :

يتبيّن من نصوص العهد الجديد ان «الماء» و«الروح» مرتبطان في المعمودية وهي الميلاد الثاني، من عَلُ (راجع يوحنا ٣:٥) ولم يفصل بينهما السيد المسيح ولا الرسل. والفعل اليوناني نفسه «ببتسين» يشير الى عنصر الماء، إذ تفقد المعمودية مادتها أي العنصر الخارجي الذي ترتكز اليه (على حد قول القديس أغسطينس) إن لم يكن هنالك ماء. فالماء هو القوام المادي للمعمودية والماء هو أساس الرمز والحقيقة التي بقوّتها يكون العماد «غسل الميلاد

الثاني» أو «غسل التجديد»، وفيه رمزية الطهارة والاغتسال والاشارة الى دفن المسيح وقيامته. فلا معمودية من غير ماء.

السؤال السادس: ولكن ألا تعلّم الكنيسة أن هنالك معمودية دم ومعمودية شوق؟

الرد:

بلى، وكلا العمادين مجازي لا حقيقي أي معنوي لا مادي.

في حالة الموعوظ الذي كان يتوق الى المعمودية ولكنه حُرم منها لوفاته أو لأسباب أخرى، وفي حالات أناس آخرين يرغبون شديد الرغبة في المعمودية ولم تتح لهم الفرصة، تعتقد الكنيسة منطقيًا انهم «اعتمدوا» ولكن بالشوق أو «بالروح»، إذ لم يقف عائق بينهم وبين المعمودية سوى ظروف قاهرة لم تكن لهم فيها حيلة.

أمّا «معمودية الدم» فهي الاستشهاد في سبيل السيد المسيح والكنيسة وان كان الشهيد غير معتمّد، ففي مثل تلك الاحوال اعتمد في دمه. وهكذا يكون قد أتمّ «إيمانه» مقاومًا حتى الدم حسب تعبير الرسالة الى العبرانيين.

السؤال السابع: أتجوز إعادة العماد، من ناحية المبدأ؟

الرد :

المعمودية لا تُعاد كما يظهر جليًا من نصوص العهد الجديد، ولا عجب في ذلك بما أنها الدخول في الحياة المسيحية الحاضرة التي هي الاستعداد لتحقيق ملكوت الله والسعادة الأبدية في الآخرة. وما أعادت الكنيسة عماد أحد عبر تاريخها الطويل بل قاومت بدعة «الدوناتيين» (القرن الرابع) في شمال افريقيا الذين كانوا يقولون بضرورة إعادة تعميد «الذين سقطوا» أي الذين كفروا بالمسيحية وقت الاضطهادات ثم عادوا إليها بعد ان زالت الشدائد.

أول مَن أعاد المعموديات بشكل جماعي لرفضه مبدأ معموديات الصغار - أي أول مَن عُمّد ثانية وهو كبير مَن كان قد اعتمد صغيرًا - كان حركة «الانابيتست»، أي «معيدي العماد» الذين نشأوا في المانيا في القرن السادس عشر تحت اسم «فيدرتويفر» برئاسة شتورش ومونتسر وهوفمان ويوهان من ليدن وغيرهم.

أحيانًا تعيد الكنيسة معمودية أناس «اعتمدوا» عند جماعات تشك الكنيسة في صحة معموديتها أو حتى في انتمائها الى المسيحية. وأحيانًا تعمّد «تحت شرط» قومًا غير متثبتين من صحة معموديتهم السابقة.

يكتب بولس الرسول: «رب واحد، اله واحد،

معمودية واحدة . . .» (أفسس ٤:٥). فكثرة الكنائس والطوائف تتسبّب بـ «معموديات» مختلفة متضاربة بحيث لا تعترف الجماعة بمعمودية الجماعات الاخرى، وفي هذه الانقسامات مخالفة وصيّة السيد المسيح وصلاته الكهنوتية للوحدة: «ليكونوا بأجمعهم واحدًا».

السؤال الثامن: هل من طوائف ألغت العماد نهائيًا، ولماذا؟

الرد:

يبدو ان حركات نشأت في بريطانيا وأميركا توصّلت الى رفض المعموديّة التامّ ومنها «جيش الخلاص» الذي أسّسه وليم بوث الانكليزي.

ولعلّ الفكرة من وراء إلغاء تلك الحركة المعموديّة – سواء كانت عماد الكبار أو الصغار – ناجم عن خوفها من ان «يعتمد المرء» على المعمودية أي ان يتذرّع بكونه معمّدًا لكي يهمل شؤونه الروحية ويعفي نفسه من كل جهد أو تضحية أو التزام. وقد يكون في ذلك شبيهًا باليهود الذين لامهم يوحنا المعمدان لأنهم تعوّدوا ان «يعلّلوا النفس قائلين: نحن أبناء ابراهيم».

صحيح ان نفرًا من المعمّدين قد يركن الى معموديته ويحسبها وسيلة أوتوماتيكية سحرية للوصول الى الملكوت

الأبدي، وقد يتوهم انه ليس بحاجة الى إيمان ولا الى محبة ولا رجاء ولا فضيلة، غير ان أمر السيد المسيح وتوصياته واضحة جليّة في شأن المعمودية كثمرة التلمذة والايمان وكنقطة انطلاق لا كنقطة وصول في الحياة المسيحية.

لذا، مع كل الضعف البشري، ما من مبرّر يسمح بإلغاء كلمات الرب يسوع ولا توصياته الصريحة في المعمودية التي ليست «طقسًا» آليًا يضمن «السماء» أي النعيم السرمدي بمجرد ان تسيل مياه المعمودية على رأس الانسان. أمّا أمر المسيح فلا حاجة الى إعادته والتعليق عليه: «اذهبوا وتلمذوا وعمّدوا...» (راجع متى ١٩:٢٨ ومرقس ١٥:١٦ وتابع يوحنا ٥:٣ وأعمال الرسل في الفصول ٢، ٨، ١٠ و١٦ و١٨ وغيرها).

السؤال التاسع: لماذا تعمّد الكنيسة الاطفال مع أن يسوع اعتمد في سن تقارب الثلاثين؟ (حسب لوقا ٢١:٣-٢٣)

الرد:

إنّ معمودية يوحنا المعمدان التي قبلها يسوع تختلف اختلافًا جوهريًا عن المعمودية المسيحية التي أسّسها يسوع نفسه. إذ إنّ معمودية يوحنا، وإن أتت من أصل سماوي

(راجع لوقا ٣:٤-٨) فهي مجرد استعداد بالتوبة لمجيء المسيح المنتظر وللعماد المسيحي. وقبل أن نبيّن في هذا المقام الفرق الجوهري بين المعموديتين بحيث لا يجوز التقيد بسن يسوع أي نحو الثلاثين في المعمودية المسيحية، تجدر الاشارة الى بعض النقاط:

أ - لم يكن يسوع أصلًا بحاجة الى أية معمودية للتوبة لأنّ له المجد، باعتراف المعمدان نفسه، «حَمَل الله الحامل خطيئة العالم» (راجع يوحنا ١:٢٩-٣٤). وفعلًا مانع يوحنا أن يعمّد يسوع وقال ان الواجب يقضي بخلاف ذلك أي أن يعمّد يسوع يوحنا (راجع متى ٣:١٣-١٤).

ب - إن التزام يسوع بأن يعتمد وهو القدوس على يد قريبه يوحنا بن زكريا واليصابات كان إتمامًا لمخطط إلهي يقضي كما قال يسوع «بإتمام كل صلاح» (متى ٣:١٥)، أي كمال القداسة بالتواضع عند المسيح المنتظر الذي هو يسوع. فقد أخذ يسوع «جسم الخطيئة» لكي يسمو بالجسد والنفس الى الله وأحصى نفسه بالمعمودية مع الخطأة كما سيحصى مع المجرمين الآثمين في آلامه وصلبه. تضامن يسوع مع الخاطئين ليخلّصهم. وكان انحناء رأسه أمام يوحنا المعمدان

أول رفض علني منه للاحلام اليهودية الدنيوية بمسيح ظافر يسيطر على العالم.

في الوقت نفسه أعطانا يسوع وأعطى سائر الخاطئين المعاصرين له المثل الصالح في التواضع والتوبة.

ج - كانت معمودية يسوع على يد يوحنا مناسبة رسمية لاعلانه مسيحًا أمام المعمدان والجماهير، لذلك كان سنّ الثلاثين أو ما يقاربه مناسباً. أما المؤمن الذي ينال المعمودية المسيحية فانه يدخل في الدين المسيحي كبداية أو كأول خطوة من طفولة روحانية. لذا يكون سنّ الثلاثين غير وارد في عماد المسيحي.

د - بقي تبيان الفرق الجوهري الاساسي بين معمودية يوحنا التي قبلها يسوع والمعمودية المسيحية التي أسّسها يسوع نفسه وأمر تلاميذه بأن يمارسوها.

الفرق الجوهري بين معمودية يوحنا والعماد المسيحي

١. كانت معمودية يوحنا باسم الله («إله العهد القديم»، راجع خروج ٣:١٣ وتابع)، أما العماد المسيحي الذي أسّسه يسوع فهو باسم الله الذي هو أب الخلق أجمعين (وليس لليهود فقط)، بعد ان أصبح شعبه المختار مكوّنًا من جميع الشعوب المؤمنة بالفادي يسوع. والعماد المسيحي أيضًا يتمّ باسم «كلمة الله الذي صار جسدًا

وحلّ فينا» (يوحنا ١:١-١٨)، الذي تأنّس من مريم العذراء فصار الانسان يسوع الناصري مسكنًا لكل ملء الطبيعة الالهية (راجع قولسّي ٢:٩)، ويتمّ العماد أيضًا باسم روح الله القدوس أو الروح القدس. على هذا الاساس تكون المعمودية المسيحية متميزة تمامًا وبشكل جوهري عن أي تغطيس يهودي وعن معمودية يوحنا المعمدان. العماد المسيحي يتمّ باسم «الآب والابن والروح القدس» (حسب متى ٢٨:١٩) أو «باسم الرب يسوع» (حسب أعمال الرسل ٢:٣٨). وقد نجد تلميحًا الى صيغة العماد المسيحي الثالوثية في (رسالة بولس الأولى الى أهل قورنتس ٦:١١) «وعلى ذلك كنتم أو قلما كان بعضكم فغُسلتم بل قُدستم بل بُررتم باسم الرب يسوع المسيح وبروح الهِنا».

٢. كان اليهودي الذي يقبل معمودية يوحنا يبقى يهوديًا، في حين أن اليهودي أو الوثني الذي كان يقبل معمودية الرسل والتلاميذ يُصبح مسيحيًا.

ولكن يجب التشديد على ان العماد ليس نقطة نهائية، وعلى المسيحي أن يعيش حسب معموديته «على قدر قامة ملء المسيح» (أفسس ٤:١٣).

٣. كانت معمودية يوحنا «في الماء للتوبة» وعليه شملت فقط الذين بلغوا سن التمييز أو الرشد أو النضوج،

أما المعمودية التي أسّسها يسوع فهي ميلاد جديد من الماء والروح يشمل الكبار والصغار حتى الاطفال حديثي الولادة، كما ان المعمودية المسيحية مقابلة للختان أي أنها «دواء للطبيعة» التي جرحتها الخطيئة الأصلية وجعلت كل الناس خاطئين في آدم فأتت المعمودية تطهيرًا وتقديسًا وتبريرًا وغُسلًا بدم المسيح.

٤. يعتقد بعض الباحثين أمثال ج. كيتل، **المعجم الكبير للعهد الجديد**، (المجلد الثاني، الطبعة الايطالية من منشورات بايديا، مدينة بريشيا ص ٦٣) أن معمودية يوحنا لم تكن سوى معمودية الدخلاء أي الوثنيين المهتدين الى اليهودية. وبسبب قرب مجيء المسيح امتدت تلك المعمودية الى اليهود الراغبين في الاستعداد بالتوبة لذلك المجيء العظيم. وفعلًا يقرأ المرء في انجيل لوقا أن جنودًا رومانيين أي غير يهود اعتمدوا على يد يوحنا (٣:١٥).

٥. ما كانت لمعمودية يوحنا القدرة على غفران الخطايا ولا على «حرقها». وقد أظهر المعمدان نفسه ذلك التمييز بين معموديته وبين العماد الذي سيؤسّسه يسوع: «أنا أعمّدكم في الماء من أجل التوبة وأما الذي يأتي بعدي فهو أقوى مني، مَن لست أهلًا لأن أخلع نعليه، إنه سيعمّدكم في الروح القدس والنار» (متى ٣:١١).

فمعمودية يوحنا مؤقتة مرتبطة بلحظة تاريخية محدّدة

هي ترقب مجيء المسيح المنتظَر، في حين أن العماد المسيحي دائم (راجع متى ١٩:٢٨ وأعمال الرسل ١٩:١-٧).

نستنتج أن المعموديّة التي أسّسها يسوع هي بالروح القدس وبالنار.

ما معنى النار؟

ترمز النار الى عمل الله الذي ينقّي ويمتحن (راجع زكريا ٩:١٣ وبطرس الأولى ٧:١). ويمكن أن يقرأ المرء: «**سيعمّدكم (المسيح)** في الروح القدس الذي هو النار».

يرمز المعمدان في وصفه المعموديّة المسيحيّة بأنها نار إلى قدرتها على محو الخطايا وحرقها معنويًا كما كانت النار تلتهم ذبائح المحرقات.

كما أنَّ روح الله نفسه الذي يُعمِّد المسيحيون باسمه يستخدم عنصر الماء رمزاً للطهارة والنقاوة (راجع رسالة بطرس الأولى ٢٠:٣-٢١).

صحيح أن النار في (متى ١٢:٣) تتخذ معنى الغضب، لكن هذا الغضب الالهي لا يقف عند تدمير الشر أو الخطيئة، بل يتحوّل بدم المسيح وتوبة الانسان الى عنصر ايجابي ينقّي القلوب والضمائر.

ما «موهبة الروح القدس» التي ترافق المعمودية

المسيحية وقد تليها (متى ٣:٥ وأعمال الرسل ٢:١٧ و٣٨)، فانها ميزة اضافية في العماد الذي أسّسه يسوع ومارسه الرسل والتلاميذ بناءً على وعد يسوع ووفائه بذلك الوعد (راجع أعمال الرسل ١:٨ ورومية ٨:١١ والرسالة الأولى الى أهل قورنتس ٣:١٦-١٧ والثانية ١٢:٤-١١).

السؤال العاشر: لماذا تستخدم الكنيسة الزيوت في المعمودية مع أنها غير مذكورة في الكتاب المقدّس؟

الرد:

ليس الزيت مطلوبًا كعنصر أساسي في المعمودية بحيث إنَّ عماذًا تمّ فقط في الماء مع صيغة التعميد المسيحي يبقى صحيحًا، ولا سيما في حالات الخطر. ولكن منذ فجر التاريخ المسيحي، كما يشهد كتاب **التقليد الرسولي** لهيبوليتس الروماني، استخدمت الكنيسة الزيوت المقدّسة: «وفي الساعة المحدّدة للعماد يبارك الاسقف الزيت ويضعه في وعاء وهذا الزيت يسمى زيت الشكر. ثمّ يأخذ زيتًا آخر ويتلو عليه صلاة طرد الشرير ... ويحمل الشماس الانجيلي هذا الزيت ويقف الى يسار الكاهن، بينما يقف شماس آخر الى يمين الكاهن وبيده زيت الشكر» (رقم ٢١).

وكما يقول كتاب **التقليد الرسولي** نفسه (رقم ٥)

«بالزيت يُمسح الملوك والانبياء» والكهنة أيضًا. وبما أن المسيحي في المعمودية يصبح في المسيح كاهنًا ونبيًا وملكًا (راجع رسالة بطرس الأولى ٢:٤-٩) فكان لا بدّ من استعمال الزيت كعنصر يرمز الى هذه المسحة الثلاثية.

انطلاقًا من أنّ «الذين يعتمدون في المسيح يلبسون المسيح» (راجع غلاطية ٣:٢٧) بحيث إنّ كل معمّد أي كل «مسيحي هو مسيح آخر»، كان من اللائق أن يُمسح الذي يُصبح مسيحيًا بالزيت لكي يصير «مسيحًا» أي ممسوحًا بالزيت، على مثال يسوع الذي قال عنه بطرس الرسول: «في شأن يسوع الناصري، كيف أنّ الله مسحه بالروح القدس والقدرة...» (أعمال الرسل ١٠:٣٨، راجع أيضًا لوقا ٣:٢١-٢٢ و ٤:١٨-٢١).

الفصل الخامس

معمودية الأطفال في بعض معانيها الروحية وأوجهها الراعوية

إنّ التعميد والاعتماد أي ممارسة الرسل وخلفائهم المعمودية وقبول المؤمنين بها من كبار وصغار، هي طاعة امر السيد المسيح الواضح ورغبته، له المجد، في أن ينقّي بدم صليبه قلوب الناس، وأن ينعم أكبر عدد ممكن من البشر بولادة العماد الجديدة من الماء والروح القدس، وكأنها نار تحرق كل خطيئة وتمهّد لكل صلاح. ففي المعمودية شفاء للطبيعة البشرية المجروحة بالخطيئة الأصلية. إنها دخول في حياة النعمة، إذ إنّ المسيح يمنّ على «الذين يقبلونه بأن يصيروا أبناء الله». (راجع يوحنا ١٢:١).

فالذي يعتمد في المسيح يلبس المسيح (غلاطية ٢٧:٣) ويُدفن مع المسيح في موته لكي يحيا معه حياة جديدة على مثال قيامته المجيدة (رومية ٣:٦-٥ وقولسّي ١٢:٢ ورسالة بطرس الأولى ١٨:٣-٢١). فالمعمودية ميلاد جديد (يوحنا ٥:٣) وهو خاتم لله الحي وطابع لا يُمحى من النفس المؤمنة (الرسالة الثانية الى أهل قورنتس ٢٢:١، وأفسس ١٣:١ ثمّ ٣٠:٤)، والمعمودية استنارة

ونور في المسيح نور العالم (أفسس ٥:٨-١٤ وعبرانيين ٦:٤) بحيث يترتّب على المعمّدين الذين أنيروا واستناروا أن يسلكوا سلوك أبناء النور وأن ينبذوا أعمال الظلمة والظلم.

انطلاقًا من فكرة النور شرع المسيحيون الناطقون باللغتين اليونانية واللاتينية ومشتقاتهما يدعون المعمّدين الجدد «نيوفيتي» أي المستنيرين حديثًا.

والمعمودية أيضًا ختان جديد (راجع قولسّي ٢:١١) بالروح لا بالجسد يشمل الذكور والاناث من غير تمييز. انها «غسل الميلاد الثاني» (تيطس ٣:٥) وتجديد الكيان الروحي المعنوي الأخلاقي بحيث يكون المعمّد في المسيح خليقة جديدة (الرسالة الثانية الى أهل قورنتس ٥:١٧).

من الواضح أن صفات المعمودية التي ذُكرت حتى الآن هي انعامات يهبها الله المؤمنين بالمسيح وأولادهم وأحفادهم بقوة الفداء وعن طريق المعمودية. ولكن كل هذه النِعَم يقبلها المؤمنون وأطفالهم في حالة بداية أو من ناحية مبدئية، بمعنى أنه عليهم التجاوب باستمرار مع هذه النِعَم وإلّا فقدوها أو ما استفادوا روحيًا من ثمارها إلّا قليلًا.

من هنا تنبع ضرورة الاستمرارية في الالتزام بالمعمودية أي بمواعيدها مدى الحياة. وفعلًا تدعو الكنيسة المؤمنين

في كل معمودية الى أن يجدّدوا تعهدات عمادهم.

ولا يجدر بالمسيحي أن ينسى معموديته والتزاماته بالمسيح وضرورة تربية أولاده وأحفاده تربية مسيحية صميمة ليصبح أتباع المسيح بناءً على كلماته له المجد «نور العالم وملح الأرض» (متى ٥:١٣-١٤). وعلى الذين استُنيروا بالمسيح عن طريق العماد أن يُنيروا العالم (الآية ١٥).

خاتمة

المعمودية «شرف وعبء» على حد التعبير اللاتيني «Honor onus». ومعمودية الاطفال هي بقوة الفداء الذي أتمّه يسوع وعن طريق الميلاد الجديد من عَلُ، من الماء والروح، التكليل المبدئي لبراءة الطفولة والخلاص الأولي من الخطيئة الأصلية وبدء مسيرة ظافرة مع المسيح المنتصر على الخطيئة والموت.

فيا ليت المؤمنين المعمّدين، «يدركون كرامتهم»، بحسب ما قاله البابا لاون الكبير، لأنّهم ابناء الله وأبناء النور والملكوت*!

---

* استعنّا في هذا البحث المختصر بمعاجم الكتاب المقدّس، لا سيّما **معجم العهد الجديد** للأب كزافيه ليون ديفور اليسوعيّ (باريس ١٩٧٥)، وكتيّب نقولا تورنازه **المعموديّات والمعموديّة** (نابولي ١٩٨٦).

المحتويات

الفصل الاول:

معمودبةالأطفال في إطار سيرة المسيح وتعاليمه ٥

الفصل الثاني:

تعميد الرسل والتلاميذ الأولين الأطفال والقاصرين ١٢

الفصل الثالث:

معمودية القاصرين والأطفال عبر الأجيال ٢٦

الفصل الرابع:

معموديات الأطفال والقاصرين: بين الأخذ والردّ
(مسائل تفسيريّة وراعوية) ٢٩

الفصل الخامس:

معمودية الأطفال في بعض معانيها الروحية
وأوجهها الراعوية ٤٦

خاتمة ٤٩

صدر من «موسوعة المعرفة المسيحيَّة»

الأسرار

١ - مدخل إلى أسرار الكنيسة (ط٣)
٢ - سرّ الزواج (ط٤)
٣ - سرّ مسحة المرضى (ط٣)
٤ - سرّ الميرون أو التثبيت (ط٢)
٥ - معموديَّة الأطفال في الكتاب المقدَّس والتاريخ (ط٣)
٦ - سرّ التوبة والمصالحة (ط٢)
٧ - سرّ الإفخارستيّا (ط٢)
٨ - الكهنوت المسيحيّ وسرّ الدرجة
٩ - سرّ المعموديَّة (ط٢)

أنجزت مؤسَّسة دكّاش للطباعة
طباعة هذا الكتيّب في الثلاثين
من أيلول ٢٠١٠

١٦٣٠-١-٣٠/٩/٢٠١٠

الأب بيتر حنّا مدروس من مواليد القدس، اختصاصيّ بالدراسات الببليّة وعلم اللاهوت الببليّ، وأستاذ الكتاب المقدّس في المعهدين الإكليريكيّين ببيت جالا وبيت ساحور. من مؤلّفاته: **بولس الرسول والإنسان، تحريف شهود يهوه للكتاب المقدّس، شدّد يا ربّ ضعيف إيماننا، الفرق بين معموديّة يوحنّا والمعموديّة المسيحيّة.**

منشورات:
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب: ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠ لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقيّة ش.م.ل.
ص.ب: ٥٥٢٠٦ بيروت، لبنان

ISBN 2-7214-5321-1
9 782721 453211